كارل عيسى صبّاغ: أطياف الذاكرة والهوية الأولى[1]

د. فيصل دراج

أنجز كارل عيسى صبّاغ كتاباً غير تقليدي، يجمع بين المعرفة التاريخية وتعليقات أدبية وأشياء من "تاريخ شخصي"، يمتد من ظاهر العمر "ملك فلسطين الأول"، في القرن الثامن عشر إلى اليوم. ولهذا "التاريخ الشخصي" ما يبرره، ذلك أن أحد أفراد عائلة الصباغ كان وزيراً لدى ظاهر العمر، أنجب أسرة تناثرت أجيالها، لاحقاً، كحال الفلسطينيين جميعاً، في بلدان مختلفة. فوالد المؤلف عمل مذيعاً في "محطة الإذاعة البريطانية"، وتزوج من سيدة إنجليزية، ودفعته ظروف الحرب العالمية الثانية إلى لندن، حيث ارتحل، لاحقاً إلى الولايات المتحدة، بعد أن مُنع من العودة إلى فلسطين، إثر "قيام دولة إسرائيل". وعاش ابنه مؤلف هذا الكتاب في بريطانيا، وأصبح "كاتباً إنجليزياً". ونقطة الانطلاق مأساة ١٩٤٨، التي حرمت الأب من الاستقرار في وطنه، وفرضت على ابنه إقامة لم يسع إليها. ولعل حنين البحث عن الأصول هو الذي أعاد كارل إلى من تبقى من أقاربه في فلسطين في عام ٢٠٠٢، حيث رأى موقع "حامية دير حنا"، أحد أمنع معاقل ظاهر، ولم ير "بقايا المدينة" لأن الإسرائيليين نشروا الخوف بين العرب قبل أن ينشروا الدمار في البيوت العربية.

عبّر الكاتب عن الظلم الذي وقع على أسرته وشعبه بكلام مقتصد، يخالطه الأسى والاحتجاج، ويسائل "سلطات غربية"، تتحضّر حين تريد، وتتوحش بلا اقتصاد، حين تريد أيضاً. نقف على "التاريخ الشخصي" في مشهد سريع: "قال حنا مشيراً إلى أحد البيوت المهجورة المبنية من الحجر:

"لقد كان هذا بيت عائلة صباغ، لا أحد يسكنه الآن. ص : ٥٧". فإذا ابتعد عن بيوت "دير حنا" الدارسة، ووصل إلى صفد التي أقفرت من العرب منذ "النكبة" قدّم مشهداً آخر. "أخبرته أن أصول عائلتي من صفد، وأن تاريخ عائلتي يعود لبضع مئات من السنين، فأخبرني بأنه قدم من فونيكس في ولاية أريزونا، وأنه في الأصل من مدينة سكوكي في ولاية إلينوي. ص : ٦٤". تبلغ السخرية السوداء المدى التي تريد، إذ الفلسطيني الذي عرفته صفد من قرون، ليس صفدياً، وإذ الأمريكي الذي ولد في "الولايات"، يمارس "حقوقه" في مدينة الفلسطيني غير المعترف به. بيد أن المأساوي، الخفيض الصوت، يتجلى في مطلع الفصل الثاني: "كنتُ أقود سيارتي في بعض الأنحاء الشمالية من إسرائيل في خريف ٢٠٠٣، بعد أن بدأت رحلتي من الساحل الغربي لبحيرة طبرية (أو بحر الجليل) وزرت فيها مدناً وقرى وهضاباً لا يسكنها أحد، انظر حولي إلى ما تبقى من "مملكة" ذلك الشيخ الفلسطيني، الذي حكم هذه الأرض في القرن الثامن عشر..." ما تبقى من مملكة الشيخ الفلسطيني، مع بعض التحوير والتعديل، هو ما بقي من فلسطينيين أجبروا على الخروج من وطنهم، ومنعوا عن العودة إليه. ولهذا جاء كارل عيسى الصباغ إلى وطنه "سائحاً"، وهو الذي تمنى والده، بعد الحرب العالمية الثانية، أن يعود إلى دولة فلسطينية مستقلة.

جعل كارل صباغ من مآل عائلته مرآة للمأساة الفلسطينية، إذ ما تبقى في "الوطن" يدمره الإسرائيليون، وإذ ما أخرج من الوطن تعطيه الغربة صياغة موجعة. حين يتذكّر أمه، التي انفصلت عن أبيه، بعد سنوات قليلة يقول: "لم تعرف أمي شيئاً البتة عن الشرق الأوسط ولم تحسن في حياتها أن تنطق اسم والدي الأول..."، ثم يكمل: "كنت عادة ما أتساءل عما تعنيه فلسطين لأمي، ومن هم على شاكلتها من الطبقة تحت المتوسطة على الأغلب. إن الصراع العربي الإسرائيلي قد تحوّل في أيامنا هذه إلى عناوين إخبارية ليس أكثر، ....، وهذا كله يبعدنا عن السبب الأساسي للنزاع...". في مواجهة الرأي العام الغربي الذي كان، ولا يزال، ربما، لا يعرف حقيقة المأساة الفلسطينية، يدافع كارل صباغ عن فكرتين ثابتتين: وجدت فلسطين شعباً وثقافة ومجتمعاً من قرون، على عكس المزاعم الصهيونية التي تلغي وجود الشعب الفلسطيني. أما الفكرة الثانية فتؤكد دور الرحالة والمستشرقين والمؤرخين الغربيين في إعطاء "الحق اليهودي" شكل البداهة، مقابل بداهة أخرى لا ترى أثراً للعرب في فلسطين، إلا إذا اختصر هذا الأثر في خيام ورعاة ومخلوقات بائسة.

بعد أن يمر صبّاغ على ما يرسم صورة فلسطين في التاريخ، يعزّز قوله، بما كتبه إدوارد سعيد :

"اكتملت الهوية العربية الإسلامية في فلسطين بنهاية القرن السابع للميلاد. وأصبحت بعد ذلك معروفة بحدودها وسماتها، ولا سيّما اسمها العربي (فلسطين)... ص: ٢٨.". وإذا كان حضور فلسطين في كتب الموروث العربي أمراً عادياً، فإن ما يثير الفضول، إلى درجة الدهشة، ماثل في الضعف الأخلاقي المريع لدى كتابٍ غربيين اخترعوا صورة فلسطين من غياب العمران ومن مخلوقات عربية بعيدة عن المبادئ الأولى للسلوك الإنساني. فالكاتب الأمريكي الساخر مارك توين، الذي ارتحل إلى فلسطين عام ١٨٦٧، لم يجد، كما يقول، إلا أرضاً "مهجورة" وبائسة، "تحتاج إلى من يبعث فيها الحياة". ويلاحظ الرحالة الإنجليزي لورانس أوليفانت في رحلته إلى صفد وجود اليهود قبل أن يتوقف أمام عرب تطغى همجيتهم على محاولاتهم البليدة للتحضر. ولن يختلف موقف الإنجليزي الآخر دبليو ام تومسون، صاحب كتاب "الأخلاق والعادات والمشاهد والصور من الأراضي المقدسة"، الذي لم يرَ في نابلس القرن التاسع عشر إلا مدينة عتيقة عجيبة راكدة...، كما لو كانت خالية من السكان.

ربما يكون الفصل الخامس "حكايات الرحلة" أحد الفصول الأكثر تأثيراً من هذا الكتاب الجدير بالقراءة. فقد أشار فيه المؤلف إلى الرحالة، الذين زاروا فلسطين في القرن التاسع عشر، ونشروا في كتبهم فكرة ثابتة مفادها أن سكان فلسطين لا اعتبار لهم ولا شأن بأرض فلسطين، وما هم إلا جمع فولكلوري من البشر، له علاقة بالصدفة الطارئة، وجوهه رجل يرعى أغنامه، وامرأة تسحب الماء من البئر، وخيمة و "المرأة صاحب الخدر"... وغيرها من الصفات النمطية المتوالدة لإنسان "أقل"، يشبه البشر ولا يشبههم في آن، ينتمي إلى زمن بدائي بعيد عن "الحضارة". لذا يبدأ صباغ "تمهيد الكتاب" بما يجمع بين التنديد والنقد والسخرية فيقول: "أنا ابن رجل فلسطيني، إلا أنني لا أحمل سوى القليل من الصفات التي ترتبط بالصور التقليدية المنطبعة في أذهان بعض الشعوب عن الفلسطينيين أو العرب، وأنا لست فقيراً، ولا كثّ اللحية، ولا أرطن بلغة إنجليزية ركيكة. ولا أحسن استخدام المسدس، ولا أعرف شيئاً عن تركيب القنابل. لا علاقة لي بالجمال، أو الرمال، أو أشجار النخيل. لكنني أتعاطف مع شعب فلسطيني، ولي روح ترتبط بهم. ص : ١١".

يؤكد صباغ سواءه الإنساني عن طريق النفي، فليس فيه ما يأتلف مع صورة العربي النمطية، فهو إنسان عادي يعيش في المجتمع الإنجليزي ويهتم بحقيقة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، كأن ما يجعله إنساناً انسحابه من فلسطين لا غيره. وبقدر ما رفض إدوارد سعيد الصورة الإستشراقية للشرق، على

اعتبار أن الشرق اختصاص معرفي في خدمة السلطة، رفض صباغ صورة فلسطين في التصور الغربي ـ الصهيوني ، القائم على الكذب المدعوم بسلطة الأقوياء، ذلك أن الكاذب القوي لا يكذبه أحد، كما قال هنري كيسنجر ذات مرة. يوحّد الكذب بين الفكرة الصهيونية والنظر الاستعماري، أجاء من نابليون، ابن الثورة الفرنسية، أم وايزمان، الكيميائي والسياسي الصهيوني، أم وزير الخارجية البريطاني "بلفور"، الذي صاغ وعده الإجرامي بلغة مخادعة، تتغيّر دلالتها وفقاً للسياق. نقرأ في الكتاب: "ويصعب على المرء أن يتخيّل الحد الذي يمكن أن يصل إليه هذا التعصب الأعمى لماضي إسرائيل أو حاضرها، ومما يزيد الطين بلة أن الناس أصحاب المعتقدات الدينية، يهوداً كانوا أو مسيحيين، لا يستسيغون تجاهل معتقداتهم الشخصية، ...، وبوجود أمثال هؤلاء الناس الذين كانوا هم القادة السياسيين في أوائل القرن العشرين، تكون الساحة مهيأة للصهاينة ليحققوا نصرهم العظيم. ص : ١٠٨".

أفضى اختراع الماضي اليهودي في فلسطين إلى اختراع حاضرهم فيها، وأفضى الاختراعان إلى محو الزمن العربي ـ الفلسطيني، وإلى نظر تطبيقي يدمّر فلسطين العربية والفلسطينيين. تم الربط بين "أدب الرحالة الغربيين" وعلم الآثار "اليهودي"، قبل ترجمة الوحدة العضوية بينهما إلى وعد سياسي وقنابل ومندوب سامي ومطاردة للفلاحين الفلسطينيين الثائرين، الذين قصفتهم بريطانيا بـ "البراميل المتفجّرة" خلال ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩.

دارت المأساة الفلسطينية، ولا تزال، بين "طرفين" أوربيين، أحدهما مشدود إلى أساطيره الدينية، وثانيهما ينصر اليهود ويدعم أساطيرهم، التي هي قناع موائم للعنصرية والتوسع الأوروبيين. اقتنع الأول بأساطيره بقدر اقتناع الثاني بالمصالح الأوروبية التي تؤمنها، مدركاً أن قوة الأساطير من "القوة السياسية" التي تقف وراء الأساطير. حين أنجز وايزمان إنتاج مادة كيميائية تفيد الجيش البريطاني قال له لويد جورج وزير الحربية: " يسعدني أن أطلب إلى رئيس الوزراء أن يقدم توصية لتكريمك من صاحب الجلالة. أجاب وايزمان: كل ما أطمح إليه هو أن أجد فرصة لأقدم خدمة لشعبي..". تتكشف الغرابة في شكل التكريم: سرقة أرض شعب وتقديمها إلى كيميائي نجيب، كما لو كان تدمير الشعب الفلسطيني هدية تليق بعالم يخدم الأغراض العسكرية، وتتجلى في كلمة "شعبي"، ذلك أن يهود فلسطين في عام ١٩١٤، عام الاختراع الكيميائي، كانوا أقل من عشرة بالمئة. والمشهد برمته مرآة لتحالف القوة والمعرفة، الذي يستطيع أن يقتلع شعباً من أرض يعيش فيها

من مئات السنين ويجعل من الفلسطينيين في المراسلات السرية بين المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانية "قلة لا يكترث بها أحد": "أما السكان الحاليون ، فأعدادهم قليلة جداً، وهم معدمون يفتقرون إلى المال والخبرة، ..ص:١١٣"، بل أنهم من الهامشية والتفاهة بحيث لا تنطبق عليهم مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسن" التي وعدت الشعوب الخاضعة للحكم التركي بالاستقلال التام. والمحصلة في الخطاب البريطاني ــ الصهيوني واضحة: "يرتبط التقدم بذكر اليهود، أما العرب فلا يرتبط ذكرهم إلا بالجمود والبذائة والحكومة العفنة، والمجتمع الفاسد الدجّال. ص:١٤٢". ولذلك بدا إنشاء دولة يهودية في سياق الاحتلال البريطاني لفلسطين، "تجسيداً لرغبة الأمة البريطانية ولرغبة الدول المتحضرة جميعها في العالم. ص: ٣٣". "الأمر الذي يعني أن طرد الفلسطينيين من وطنهم كان، بدوره، تعبيراً عن "إرادات شعوب ودول العالم المتحضرة..."

السؤال الذي يطرحه كتاب صبّاغ هو التالي: ما معنى التحضر وما هو التوحش في سياق استعماري منتصر؟ والجواب في العرف الاستعماري بسيط": يساوي التحضر قوة الطرف الذي يقول به، ويساوي التوحش ضعف الإنساني الذي يعتبر متوحشاً. فلا أخلاق إلا أخلاق القوة، التي لا تفصل بين الحقائق والأكاذيب. وبسبب القوة العارية، التي تناقض الأخلاق، يستطيع العالم الصهيوني أن يكون كاذباً ، وهو يبحث عن "شعب مخترع" ، ويكون كاذباً "الأديب الكبير مارك توين"، الذي لم يرَ بشراً في مرج ابن عامر، ويكون كاذباً الرئيس الأمريكي ولسن، الذي منع عن الفلسطينين حقوق الإنسان، والأمر على حاله مع عالم الآثار، الذي ينقّب عن آثار يهودية في فلسطين تعود إلى ثلاثة آلاف عام. ولن يختلف حال رجل الدين، اعتماداً على كذب متواتر جعل من فلسطين هبة إلهية. ولهذا قال العسكري أرسل شارون "المؤمن برب اليهود" أمام جمهرة من المسيحيين "هذه الأرض لنا والرب أعطانا صكوك الملكية"، ناسياً صناعة الإرهاب التي كرّس لها حياته كلها. ولعل قوة الكذب أو القوة التي لا تحتاج إلى الكذب، هي التي دعت روزفلت، الرئيس الأمريكي إلى القول عام ١٩٤٢: "أفكر في وضع أسلاك شائكة حول فلسطين، وأن أبدأ بطرد العرب منها،...، : ص٢٤٨". تسييج الأرض تعبير عن ملكية ذاتية مطلقة، تحمي الأرض من "المخلوقات العربية الخطرة".

بعد سؤال التحضّر والتوحش يأتي سؤال العقل الحداثي: كيف يجمع رئيس أمريكي، يّدعي الحضارة والديمقراطية والعقلانية بين القيم الحداثية والقبول بأساطير يهودية؟ والسؤال له علاقة بالعنصرية المطلقة التي تنظر إلى العرب كجنس متدنٍ بين الأجناس البشرية، لا يعرف معنى الوطن والسياسة

أو الدولة، ولا يستطيعون إدارة مجتمعه والتعامل مع الحضارة.

أنجز صبّاغ بحثاً عن تاريخ فلسطين الحديث، معتمداً مادة وثائقية واسعة، وأدرج فيها سيرة شخصية تضيئ الوثائقي، وتضع فيه بعداً روائياً. وإذا كان في الكتاب ما يحكي "ديمومة الهوية الفلسطينية"، التي تشهد على شعب وأرض محدّدين، فإن فيه صورة مرعبة، لا بالمعنى المجازي، للكذب الاستعماري والصهيوني. فكل ما قاله الاستعماريون للشريف حسين وأبنائه من بعده وللمسؤولين الفلسطينيين كان كذباً خالصاً، كما لو كان هناك نوعان من البشر؛ أحدهما جدير بالصدق والاعتراف، وهم اليهود والغربيون، وثانيهما من بلادة ورمال وهم الفلسطينيون والعرب.

استهل المؤلف كتابه بفصل عنوانه: فلسطين القديمة، وأغلقه بالفصل الحادي والعشرين الذي عنوانه: ضياع فلسطين. ارتكن إلى أسلوب الإقناع القائم على الوثيقة، وعين ذاته وعائلته أبعاداً حيّة لهذه الوثيقة الصادقة والمقاتلة، كاشفاً عن جذور المأساة الفلسطينية، التي هي نتيجة للغطرسة الإمبريالية، القائمة على العنصرية والمصالح والتفوق العسكري والمادي. لا مكان للأخلاق، أو ما يشبه الأخلاق، في النظر الاستعماري الغربي، أكان ذلك في الماضي أم في الحاضر.. ولهذا فإن استرجاع فلسطين، وهو شأن عربي ، يحتاج إلى انقلاب عربي عميق في النظر والممارسات والتعامل مع العالم،

أراد كارل صباغ أن يتوجّه إلى الجمهور الغربي، وأن يكشف له حقائق الصراع العربي ـ الإسرائيلي. غير أن الكتاب، في استقصائه المعرفي وشكل صياغته، قادر على "الحوار" مع القارئ العربي، وعلى تعليمه أموراً لا يعرفها، أو كان يعرفها وسقطت في النسيان، بعد مضي "زمن طويل على ضياع فلسطين".

(١) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ٣٤٠ صفحة